

صفات الخالق في القرآن الكريم



﴿أقسام الصفات﴾

يمكننا أن نقسم صفات الله سبحانه وتعالى إلى ما يجب أو يصح أن نصفه به، وإلى ما لا يصح أن نصفه به إلى قسمين:

1- صفات الجمال والكمال (الصفات الثبوتية): وهي الصفات التي يجب، أو يصح أن نصفه بها.

2- صفات الجلال (الصفات السلبية): وهي الصفات التي تثبت التنزيه عما لا يصح وصفه به كتنزيهه عن الجسمية والحركة فنقول مثلاً إله ليس بجسم.

الصفات الثبوتية:

وهي صفات الله المقدسة الواجب ثبوتها له، كالعلم والقدرة والإرادة والحياة والبقاء... إلخ. إن علماء التوحيد ذكروا ثماناً من صفات اعتبرت هي الكل الجامع لصفات الغنى والكمال التي يمكننا أن ندرك ونشخص آثارها واضحة ظاهرة في الخلق. ونحن نذكرها كالتالي:

1- القدرة: كل ما في هذا الوجود من طاقة ومادة وصورة وقانون وحياة وعقل وتنظيم واستمرار بقاء ليدل دالة واضحة على قدرة الخالق العظيم، فهذا الكون صورة فنية رائعة الإبداع والجمال والتنظيم، وألة متقنة السير والانضباط، وهذه الأصناف التي لا حصر لها من المخلوقات في أعماق البحار وآفاق الكون وعلى سطح الأرض من الإنسان والحيوان والنبات واختلاف الأشكال والألوان والطعوم ليدل دالة واضحة عميقه على قدر المدائن وعظمته..

(اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ لِيَوْمَ الْحِجَارَاتِ بِغَيْرِهِ رَبِّ الْعَالَمَاتِ
الْعَزِيزَ وَسَخِيرَ الشَّاهِدَاتِ كُلَّ يَجْرِي لِاجْلِ مُسْمِمٍ يُدْبِرُ الْأَمْرَ
بِفَصْلِ الْآيَاتِ لِعَلْتَكُمْ بِلِقَاءَ رَبِّكُمْ تُوقَنُونَ * وَهُوَ الْأَنْدَلِي مَدَدُ الْأَرْضِ
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الْذَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنَ
إِثْنَيْنِ يُغْشِي الْأَرْضَ لِيَوْمِ النَّهَارِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *
وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَاهٌ وَرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْذَابٍ وَرَرْعُ وَزَخِيلٌ صَدْرُ وَانْ
وَغَيْرُ صَدْرُ وَانْ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضَّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضِهِ فِي الْأَكْلِ
إِنْ فِي ذَلِكَ لَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الرّعد/4-2).

فببساطة يمكن للعقل المفكر أن يعرف عظمة الله سبحانه وهو يتأمل هذه الصورة الفنية الرائعة لعالم الطبيعة والإنسان والحيوان، أو يحاول أن يتأمل في طعامه وشرابه:

(فَلَيَنْدُطُرِ الْإِزْسَانُ إِلَيْ طَعَامِهِ * أَزَّا صَبَبَنَدَا الْمَاءَ صَبَبَنَدَا * ثُمَّ
شَقْنَدَا الْأَرْضَ شَفَّا * فَأَنْبَتَنَا فِيهَا حَبَّا * وَعَنَبَّا وَقَضَبَّا وَزَبَنْدُونَ
وَزَخَلَا * وَحَدَّدَ أَرْقَ غُلْبَّا * وَفَاكِهَةَ وَأَبَّا * مَتَّاءَ لَكُمْ وَلَأَزْعَامِكُمْ) (عبس/
24-32).

(وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَاهٌ وَرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْذَابٍ وَرَرْعُ وَزَخِيلٌ
صَدْرُ وَانْ وَغَيْرُ صَدْرُ وَانْ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضَّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضِهِ فِي
الْأَكْلِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الرّعد/4).

فإن نظرة فاحصة إلى مائدة الطعام وهي تحوي مثلاً اللحم والتفاح والرز والتمر والخبز والبمل والبرتقال والحليب والبقول.. إلخ.

والتأمل في ألوانها وطعمها وروائحها ومنافعها الغذائية المختلفة كافية لأن يصلنا إلى معرفة عظمة هذا الخالق العظيم الذي أبدع وصور هذه الصورة الجميلة الرائعة، وأخر كل هذه التشكيلات الجمالية البدعة من مادة التراب المتواضع، فإن في كل هذه الحقائق دلالة عميقه وآية ناطقة بعظمة وقدرته، كيف لا وهي التراب الذي يتحول بطرق عجيبة إلى مواد سكرية ونشوية وبروتينية ودهنية وفيitaminات وألوان وعطور وروائح.. إلخ، ثم يستقبله الجسم البشري هذا المصنوع المعقد الفريد فيهضمه ويحوّله بفعل مواد وإفرازات خاصة يفرزها ثم يتمتص ما هو صالح ومفيده منه ويطرد الفضلات ويفرغ النفايات بطريقة تعجز عنها أرقى العقول وأعقد المchanisms والمختبرات العلمية، ثم يحوّل الجسم هذه المواد الممتصة إلى مواد مختلفة حسب حاجة الجسم إليها، ومنها يصنع الجسم الطاقة ومادة اللحم والشحم والعظم والشعر والأظافر والعصارات الهضمية وإفرازات الغدد المختلفة... إلخ، فسبحان الله تعالى أحسن الخالقين.

و قبل أن ننهي هذه الإشارة الخاطفة إلى مظاهر القدرة الربانية يجب أن نعرف أن قدرته سبحانه لا حد لها، فهو قادر على أن يفعل ما نتصوره وما لا نستطيع أن نتصور، كما أن قدرته متساوية بالنسبة إلى جميع الممكنات فقدرته على خلق الكون وإنفائه كقدرته على خلق الذرة وإنفائها، لأن قدرته مطلقة وغير محدودة، ولا تختلف نسبة الأشياء إليها.

بعد ثبوت القدرة التامة له سبحانه، يثبت لدينا نفي الاضطرار عنه، فهو منزه عن صفة الاضطرار والإلقاء، ويتبين ذلك بوضوح من قدرته على اختيار الزمان والكيفية والصورة التي أبدع فيها هذا العالم، فهو الذي اختار لهذا العالم ولكل جزء من أجزاءه، الأرض، الشمس، القمر، والإنسان والحيوان والنبات... إلخ. زماناً خاماً للتكوين والظهور، وهو الذي اختار له الصورة والوضع والصفة المناسبة، فسبحانه، له وحده القدرة والاختيار كيف يشاء، (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) (القصص/ 68).

فهو سبحانه قادر على الفعل والترك.

وإذا شئنا أن نعرف الحقيقة الفلسفية لإيماننا بهذه الحقيقة العقائدية ومدى علاقتها بتفسير وجود هذا العالم وصدره فعلينا أن نضع صيغة السؤال التالي ثم نجيب عليه:

"هل العالم يجب أن يوجد وليس بوسع الخالق إلا أن يوجد، فوجوده قضية حتمية لا يستطيع الخالق

التصريف فيها كما يقول المنحرفون. أم إنّ قضية وجود العالم وعدمه هي قضية يختارها ويقرها الحال
سبحانه فهو قادر أن يخلق العالم وقدر أن لا يخلقه... ومعنى ذلك فبالإمكان أن لا يكون هذا العالم
مطلقاً، كما كان بالإمكان خلقه وإيجاده على هذه الشاكلة؟... والجواب الحقّ:

إنّ العالم بما فيه من مادة وصورة وقوانين وحوادث وأشياء ب مختلف أشكالها وصور ظهورها وأزمنة
وجودها هي حقائق قد وقعت وفقاً لاختيار والمشيئة الربانية.

أي أنّ آماداً قد مرت وهذا العالم غير موجود.

وهذا الكون له عمر محدد لم يكن وجوده حتمياً، إذ لو كان وجوده حتمياً لما تأخر وجوده آماداً
لا يعلمها إلا... إذن وجوده اختياري اختياره خالق الوجود فحدد زمنه وكيفيته... من ذلك نعرف أنّ
الخالق مختار يصرّف الأمر كيف يشاء.. ومن ذلك نستنتج أنّ كلّ واحد منا مدین لهذا الاختيار الرباني،
فقد اختار الله للوجود، ولو لا هذا الفضل الرباني لما كان الموجود منا موجوداً الآن، لذلك وجوب
 علينا الشكر والثناء على الله سبحانه، الذي أوجدنا ولم يتركنا عدماً، وجعلنا ننعم بنعم الحياة..
ووعدنا بنعيم الآخرة إذا نحن سرنا على منهجه شريعته واتبعنا النور الذي أنزل على نبيه.

2- العلم: أمّا الصفة الأخرى من صفات الذات الإلهية المقدسة فهي العلم، ومن ضرورات التوحيد أن
نعرف أنّ علمه سبحانه هو غير ما نفهم من علم الإنسان.

فالفرق بين العلمين هو:

أ) علم الله سبحانه هو علم لدني (علم ذاتي).

أما علم الإنسان فهو علم كسيبي تحصيلي.

ب) يمر علم الإنسان بمراحلتين: التصور والتصديق، وعلمه عبارة عما في ذهنه من صور الأشياء وحكمه
عليها.

أما الله سبحانه فمنزه عن ذلك، فعلمه عبارة عن حضور الأشياء لديه وإحاطته بها.

ج) الإنسان ينتقل في معارفه من المعلوم إلى المجهول.

أي يتوصل إلى معرفة الأشياء المجهولة عن طريق الأشياء المعلومة.

أما الخالق سبحانه فهو منزه عن ذلك، فعلمه لا يحتاج إلى تفكير ولا يجهل شيئاً حتى يتعلم أو
يكشفه بواسطة مقدمات علمية أولية كما هي حال المعرفة عند الإنسان.

فكلّ تلك الخصائص هي من قوانين المنطق والتفكير البشري... أما معنى علم الله سبحانه فهو (حضور
الأشياء لديه) فعلمه حضوري في حين يكون علم البشر بتوسط الأشياء من دون حضور ذات الأشياء لدى النفس.

د) وعلمه سبحانه واحد غير قابل للتفاوت (متساوٍ بالنسبة لكلّ الموجودات) فعلمه بالأحياء
المجهرية في أعماق المحيطات كعلمه بالكواكب وال مجرات الكبيرة وفي آفاق السماوات.. أما علم الإنسان
 فهو درجات متفاوتة، لذا نجد علمه بقضية أيسر أو أوسع من علمه بقضية أخرى، لأنّ علمه كسيبي ومحدود
ومتدرج:

(وَمَا تَكُونُ فِي شَاءْ وَمَا تَتَكَبَّرُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ
إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفْرِضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ
مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مُبِينٍ) (يونس/ 61).

وهذه المعرفة تجعلنا نؤمن بأنّ "ما جاءنا من شرائع وقوانين وأحكام هي قوانين علمية تعبّر عن علم الـ المحیط بكلّ صғیرة وكبیرة ترتبط بعقل الإنسان ونفسه وجسمه ومجتمعه، فهو العالم بما يصلحه من قوانین وأنظمة، وإنّ ما شرع الإنسان من شرائع وقوانين وضعیة هي تخرصات وهمیة لا تعبّر عن الحقيقة العلمیة، ولا تحقق مصلحة إنسان لذلك نجد القرآن الحکیم ينبهنا على هذه الحقيقة ويقول.

(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَالِيًّا شَرِيعَةً مِنَ الْأَمْرِ فَإِذَا تَتَّبِعُهَا وَلَا تَتَّبِعُهَا أَهْوَاءَ الْأَذْنِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (الجاثیة/ 18).

ومازلنا نتحدث عن علم الـ فعلينا أن نعرف أنّه سبحانه هو وحده مختص بعلم الغیب الذي هو علم الذات المستأثر به لنفسه.

(عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَالَى غَيْبِهِ أَحَدٌ) (الجن/ 26).

فهو وحده يعلم الغیب سبحانه. أما ما نجد من علم عند النبيّ (ص) وأخبار بقضايا وأحداث غیبية فهو تعلیم وإخبار إلهي للرسول الکریم (ص) وكذلك ما نجده عند أهل البيت (عليهم السلام) فإنّه من هذا القبيل فهو عن طريق الرسول (ص). علينا أن نفهم أنّ ما نرى ونسمع من تنبیات علمیة تزودنا بها المراسد والآلات فهي ليست یقینیة من جهة ثم ليست علمًا غیبیاً بل هو عمل استنتاجی عن طريق مقدمات ومعلومات علمیة أولویة تنبؤنا بأحداث ومعلومات مستقبلیة.

3- مريد کاره: ومن صفاتـه الكمالية سبحانه إنّه مريد کاره.. ومعنى الإرادة بالنسبة إليه سبحانه هو: "الداعی لا يجاد الفعل لعلمه سبحانه بما في هذا الفعل من مصلحة للخلق".

فأفعالـه سبحانه التي صدرت عنه إنما صدرت بإرادة واختیار.. أي لعلـمه أنّ فيها خيراً ومصلحة فأراد تحقيقها واختار وجودها.

فخلقـ هذا الكون والإنسان والحياة والخلائق الأخرى، وأجرىـ الحوادث وأرسلـ الرسل وأنزلـ الشرائع وأرادـ بعض الأفعالـ، فأمرـ بهاـ، كما إنّه كرهـ بعضـ الأفعالـ فنهـ عنهاـ لعلـمه إنّ فيهاـ مفسدةـ وضررـ.

وتقسمـ الإرادةـ الإلهـية حسبـ الآثارـ الصادرةـ عنهاـ إلىـ قسمـين:

أ) إرادةـ تکوینـیـة: وهيـ إرادـتهـ الخـلقـ والإـنشـاءـ لإـرادـتهـ لـخـلـقـ السـماـواتـ وـالـأـرـضـ وـالـمـوـتـ وـالـحـيـاةـ واختـلـافـ أنـوـاعـ الـخـلـائـقـ وـمـاـ يـجـريـ فـيـ الـوـجـودـ مـنـ أحـدـاـثـ طـبـیـعـیـةـ وـمـنـ قـنـاءـ وـقـدـرـ... إـلـخـ وـهـذـهـ إـرـادـةـ حـتـمـیـةـ الـحـدـوـثـ وـالـوـقـوـعـ وـلـاـ رـادـ لـهـ إـلـاـ هـوـ.

ب) إرادةـ التـشـرـیـعـیـةـ: وهيـ إرادـتهـ لـكـلـ الأـفـعـالـ وـصـبـیـعـ الـحـیـاةـ وـالـعـلـاقـاتـ إـلـاـنسـانـیـةـ التـیـ عـلـمـ أـنـ فـیـهاـ مـصـلـحةـ لـلـخـلـقـ فـأـمـرـ بـهـاـ، وـأـبـلـغـ هـذـهـ الـأـوـامـرـ الـمعـبـرـةـ عـنـ إـرـادـتـهـ سـبـحـانـهـ إـلـيـنـاـ عـنـ طـرـیـقـ الـوـحـیـ وـالـرـسـلـ مشـخـصـةـ فـیـ الـشـرـائـعـ وـالـقـوـانـینـ وـالـأـنـظـمـةـ وـالـتـعـالـیـمـ الـتـیـ تـنـظـمـ حـیـاةـ الـبـشـرـیـةـ وـتـرـسـمـ لـهـاـ طـرـیـقـ الـخـیـرـ وـالـسـعـادـةـ فـیـ الدـنـیـاـ وـالـآخـرـةـ وـبـدـاـ تـکـونـ الـشـرـائـعـ وـالـأـدـیـازـ؛ـ هـیـ:

"مجموعـةـ الـقـوـانـینـ وـالـأـحـکـامـ وـالـمـفـاهـیـمـ الـکـاـشـفـةـ عـنـ إـرـادـةـ أـنـ فـیـ خـلـقـةـ سـبـحـانـهـ، وـالـمـعـبـرـةـ عـنـ عـلـمـ بـمـصـلـحةـ الـخـلـقـ وـإـلـاـحـ حـیـاـتـهـ".."ـ ولـذـاـ کـانـ الانـحرـافـ عـنـ اـنـجـرافـاـ عـنـ الـعـلـمـ وـالـمـلـحـةـ، وـسـقـوـطاـ فيـ الـفـسـادـ وـالـجـهـلـ التـشـرـیـعـیـ وـتـجـرـیـ الـإـرـادـتـانـ الـتـکـوـینـیـةـ وـالـتـشـرـیـعـیـةـ بـتـوـافـقـ تـامـ، لأنـ"ـ التـنـسـیـقـ وـالـتـوـافـقـ بـینـ الـتـکـوـینـ وـالـتـشـرـیـعـ أـمـرـ يـرـتـبـطـ بـعـدـ أـنـ حـکـمـتـهـ، فـمـثـلاـ خـلـقـ الـلـاـسـانـ غـرـائزـ وـمـیـوـلـاـ وـعـوـاطـفـ وـحـاجـاتـ مـادـیـةـ وـمـعـنـوـیـةـ مـخـلـفـةـ فـرـدـیـةـ وـاجـتمـاعـیـةـ، وـلـذـاـ کـانـ مـنـ الـضـرـورـیـ أـنـ يـکـونـ التـشـرـیـعـ مـسـتـوـعـباـ وـمـنـظـماـ وـمـلـبـیـاـ لـكـلـ هـذـهـ الـحـاجـاتـ وـالـمـیـوـلـ وـالـاتـجـاهـاتـ الـغـرـیـزـیـةـ وـالـعـقـلـیـةـ وـالـنـفـسـیـةـ، وـلـوـلـاـ هـذـاـ التـنـسـیـقـ وـالـتـحـاوـبـ بـینـ الـتـکـوـینـ وـالـتـشـرـیـعـ لـأـنـفـتـ الـحـکـمـ وـالـعـدـلـ الـإـلـهـیـ، وـلـتـنـاـقـشـ الـتـکـوـینـ وـالـفـطـرـةـ الـإـنـسـانـیـةـ مـعـ الـقـانـونـ وـالـتـشـرـیـعـ، وـلـكـنـ الـخـالـقـ وـالـمـشـرـعـ عـادـلـ حـکـیـمـ، لـذـاـ إـنـ"ـ الـقـانـونـ وـالـتـشـرـیـعـ الـإـلـهـیـ مـتـوـافـقـ تـامـاـ مـعـ الـطـبـیـعـةـ وـالـتـکـوـینـ الـإـنـسـانـیـ"ـ.

4- حـیـ:ـ وـالـصـفـةـ الـرـابـعـةـ مـنـ صـفـاتـهـ سـبـحـانـهـ أـنـ"ـ حـیـ:ـ

(اللَّهُمَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ...) (البقرة/ 255).

فمثل هذه الصفة لا تحتاج إلى إثبات، فبعد ثبوت صفة العلم والقدرة والإرادة له سبحانه فأنّه لشيء حتمي أن نعرف أنّه حي.. إذ كيف يتصرف بالعلم والقدرة والإرادة ولا يتصف بالحياة، كما لا بدّ من أن نعرف أيضاً أنّه حي لا بحياة كما هي حال الكائنات الحية، بل إنّ ذاته المقدسة كما هي متصفه بالعلم والقدرة فهي متصفه بالحياة أيضاً اتصافاً ذاتياً، ولنليست صفة إضافية زائدة.

5- سميح بصير وهو سبحانه متصف بهذه الصفة، ومعنى قوله إنّه سميح بصير هو: "إنّه محيط وعالم بالأصوات والمرئيات".

قال سبحانه واصفاً ذاته المقدسة:

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) (طه/ 46).

(لَيْسَ كَمَثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى/ 11).

إذن فهو يسمع من غير أداة سمع ويرى من غير أداة رؤية.

6- ومن صفاته سبحانه أنّه متكلم، والشّرائع وتکليم الأنبياء والأحاديث القدسية هي دليل قاطع على ذلك.. وقد وصف نفسه سبحانه بهذه الصفة فقال:

(تَلَمَّكَ الرُّسُلُ فَهَمَّتْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَمَ اللَّهَ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ...) (البقرة/ 253).

(.. وَكَلَمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) (النساء/ 164).

وكما عرفنا فإنّ كلّ صفة من صفاته سبحانه هي غير صفاتنا فاًتصافه بهذه الصفة هو غير اتصافنا بها... فكلامنا خاضع للقوانين الطبيعية المعروفة، من التفكير وأداة النطق والوسط الطبيعي الناقل للصوت... إلخ. أمّا كلامه سبحانه فليس كذلك... بل هو خالقُ الحروف والكلمات والأصوات والمعاني التي يريد سبحانه بإبلاغها إلى الأنبياء.

7- الصدق: ومن صفاته التي وصف نفسه بها هي الصدق، فهو صادق بما أخبر، وما وعد وما توعد، فإنّه وعد المحسن بالجنة والنعيم، ووعد المسيء بالعقاب والعذاب، ووعد المجاهد بالنصر... إلخ، ولا بدّ من تحقق ذلك والوفاء به.

8- قديم أرلي سرمدي: أي ليس لوجوده بداية ولا نهاية، فهو الأوّل بلا بداية والآخرة بلا نهاية.

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ...) (الحديد/ 3).

ذلك بأنّ كلّ ماله بداية فهو معلول يحتاج إلى علة، ولو احتاج إلى علة لما كان خالقاً ولكن مخلوقاً.

وقد اثبتنا فيما سبق من البحث أنّ العالم حادث، وعلته قديمة، فهو سبحانه لا بداية لوجوده، مستمر الوجود والبقاء ولا نهاية لوجوده.

وإذن بكلّ صفاته المقدسة يمكن أن تجمع صفة واحدة وهي الغنى ووجوب الوجود... .

ثانياً: المفات السلبية: وهي المفات التي تثبت التنزية □ وتنزهه عن المفات التي لا يجوز وصفه سبحانه بها، ويجب نفيها عنه، لأنّها من صفات المخلوقين، كالانفعال، والحلول، والاتحاد والتجسيم والحركة والسكون... وغيرها من المفات التي لا تتفق وصفات الغنى والكمال ووجوب الوجود. فنقول إنّ □ ليس بجسم ولا يحل في غيره ولا ينفع... إلخ.

وهذا هو معنى قولنا (سبحان □) أي تنزه عن كلّ نقص وصفة لا تليق بألوهيته سبحانه. ▶